تاريخ المذاهب الإسلامية في شمال أفريقيا

لحضرة المجاهد التونسي الكبير السيد محي الدين القليبي

تمهيد :

لم يكن النزاع الأول الذي حدث بين المسلمين في فجر التاريخ الإسلامي حسبما يبدو لي في حقيقته إلا نزاعا سياسيا يتعلق بنظام الدولة : نوع الحكومة . شخصية الحكام . أسلوب الحكم . سياسة المحكومين . فلقد ذهب كل فريق مذهباً خاصا به في كل ما تقدم ، فكانت المذاهب السياسية في نظام الدولة ، ولم يكن يتبع في بداية الأمر عقائد خاصة أو نظريات لكل فريق في فقه المعاملات والعبادات وإنما حدث ذلك عند ما تحمس كل قرين لمذهبه السياسي ، وأراد أن يكسوه صبغة دينية أدت إلى التناحر والحروب بين الطوائف الإسلامية ، ولولا ذلك لكانت المذاهب لا تخرج عن اختلاف نظريات في سياسة الدولة وتباين اتجاهات في قانون علاقات الأفراد ، ولكفى المسلمون أنفسهم استباحة بعضهم أعراض ودماء بعض ولما تفرقوا خلافاً لما أمر الله ، ولما تخطفهم الناس واستذلوهم عقابا من الله .

وإذا كان الاختلاف في الرأي ظاهرة لازمة لكل مجتمع قام على عقيدة وسخت وامتد نفوذها ، فاقتضى هذا الامتداد والانتشار قيام دولة ، وانشاء حكومة لحماية العقيدة وحفظ النظام الذي جاءت به لذلك المجتمع ، فإن المهاترات الكلامية ، والحروب المسلحة بعدها غير لازمة بين معتنق تلك العقيدة إذا ما اختلفت آراءهم في الفروع والجزئيات ، وأكثر ما ينشأ ذلك عن تدخل العامة والدهماء أو من هم في منزلتهم فيما هو من خصائص الخاصة والعلماء إذ بذلك تنقلب الأوضاع

وينتكس السير ولا منجاة من ذلك إلا بإرجاع الأمور إلى أهلها ، والضرب على أيدى المتزامين عليها والرجوع إلى الله ورسوله فيها .

فرق ومذاهب :

اعتاد المؤرخون أن يطلقوا على المختلفين فى الأصول فرقا ، وعلى المختلفين فى الفروع (العبادات والأحوال الشخصية) مذاهب ، وقد عرفت شمال إفريقيا منذ حدوث الاختلاف الأول فى الإسلام من الفرق ـ فرقة الخوارج ـ جاء بها عكاشة الصفرى إلى تونس ودعى إليه بين البربر من سكانها ، فكانوا أكثر معتنق فكرته ، جمعهم حوله ، وثار بهم على عمال الأمويين فى شمال أفريقيا ، سنة ١٢٤ هـ . وجاء على أثره عبد الرحمن بن حبيب واستفحل أمره لأن الدولة الأموية كانت مشغولة بظهور الدولة العباسية بالمشرق ، واستقر هذا المذهب الذى يكاد يكون عهده سلسلة متتابعة الحلقات من الحروب والثورات لا ثبات مثله العليا فى نظام الحكم . وقد تمكن من ذلك فى فترات وانشأ دولا وحكومات لعل آخرها دولة بنى رستم فى تيهوت من بلاد الجزائر ، استقر هذا المذهب وتبعته فروعه كالأزارقة والعجاردة والصفرية والاباظية ، وهم الذين لا يزالون إلى اليوم فى شمال إفريقيا ، يعيشون جماعات تتبع نظاما محكما يشبه الدوله التى يراها المذهب ويحافظون على آرائهم فى الأصول والفروع فى نظام الدولة والجماعة ، وعلاقة الفرد بالفرد واشتهر من بينهم علماء زخرت المكتبات بمؤلفاتهم ذات القيمة العلمية فى فروع المذهب وأصوله وفيما وراء العقيدة المذهبية ، ولولا التعصب لانتفع المسلمون به فى كثير من الدراسات إلا أنهم حرموا منها كما حرموا من غيرها من كتب المذاهب الأخرى ، خصوصاً التى لا علاقة لها بمسائل الخلاف ، ومعتنقو هذا المذهب يسكنون وادى مزاب من جنوب الجزائر وجزيرة جربة من مملكة تونس وجبال نفوسة ويفرن وفساطو وغيرها من مملكة طرابلس ، ولهم صلات وثيقة بأباظى عمان وزنجبار ، وفى داخل عمان تقوم الحكومة العادلة المستقلة التى يقرها المذهب ويعتبر أرضها دار إسلام . ولا باع المذهب مدارس يدرس فيها علماؤهم

قواعد المذهب وأصوله ، وتأتى بعثات منهم إلى تونس والجزائر ومراكش ، وأحيانا إلى مصر لدرس العربية والتفسير والأصول ، أما العقائد والفقه فهم يدرسونها على شيوخهم ، ولا تكاد تحس بأى فرق ولا تشعر بأقل وحشة بينهم وبين أصحاب المذاهب الأخرى فى شمال إفريقيا ، لأن أخوة الإسلام القوية فى المغرب تطغى على كل شىء ، وكثيراً ما يحصل النقاش بينهم فى مسائل الخلاف ولكن بكل أدب وتسامح ، وفى الكفاح الوطنى يشتركون مع اخوانهم جنباً لجنب .

المذهب المالكى :

عند ما كان النزاع بين الخوارج وأهل السنة والشيعة فى الأصول أو السياسة العليا ، لم تكن قد ظهرت مذاهب الفروع رغم ارتحال بعض العلماء المشهورين من أهل السنة التونسيين إلى المشرق لطلب العلم ، ورواية الحديث بالخصوص كعبد الرحمن بن زياد ، وأسد بن الفرات ، فإن المذهب المالكى لم يبرز كمذهب إلا على يد الإمام سحنون بن سعيد التنوخى فى أواخر القرن الثانى ١٩٠ هـ ، لما ضبط هذا المذهب فى كتابه « المدونة الكبرى » ومذهب الإمام مالك هو المذهب المنتشر انتشاراً عظيما فى بلاد المغرب - ليبيا وتونس والجزائر ومراكش - وحتى سودان أواسط وغربى أفريقيا ، وبلغت تآليف علماء هذا المذهب فى فروعه العدد العظيم ، طبع منها ماطبع وبقى الكثير منها مخطوطا نادراً يتباهى العلماء بحيازته فى خزائنهم الخاصة ، ويدرس مع العلوم الدينية واللغوية فى الكليات الشهيرة فى هذه الأقطار ، فأهل الصحارى والسودان يدرسون فى تنبكتو وشنجيط وفى مراكش فى جامع القرويين ، وفى الجزائر معهد بن باديس أخيراً ، وفى تونس جامع الزيتونة ، وفى ليبيا جامع الباشا .

الشيعة :

نتبع فى ذكر المذاهب تاريخ وجودها ، فإذا كان مذهب الخوارج وجد سنة ١٣٤ هـ ، ومذهب مالك من أهل السنة حوالى سنة ١٩١ هـ ، فإن مذهب الشيعة لم يظهر فى شمال إفريقيا إلا فى أواخر القرن الثالث وبداية الرابع .

ذهب جماعة من قبيلة كتامة البربرية إلى الحج ، فلقيهم داعية الفاطميين باليمن أبو عبد الله الصنعانى ، فتأثروا بغزارة علمه وفصاحة لسانه ، وبعد نظره ، فدعوه إلى بلادهم المغرب فرحل معهم ، واجتمع عليه البربر من كل مكان ، فأظهر دعوته لآل البيت فيهم فتأثروا بها ، وأخذوا على أنفسهم الجهاد فى سبيلها ، فنظمهم وسار بهم لفتح طريق الدولة الجديدة ، وقامت هذه الدولة العبيدية كما هو مبسوط فى التاريخ على يد عبيد الله المهدى الذى بنى لها عاصمة جديدة بالقطر التونسى أسماها المهدية ، لا تزال إلى الآن من عواصم الساحل التونسى ، ونلت دولة العبيديين الدولة الفاطمية التى ركزت المذهب الشيعى فى تونس وكثير من بلاد شمال إفريقيا .

ونشاهد هنا أن البربر كانوا فى المائة الثانية عماد مذهب الخوارج ، كما كانوا فى أواخر المائة الثالثة عماد مذهب الشيعة ، ولا نقول إنهم وحدهم قد اعتنقوا هذه المذاهب ، بل كانوا هم الأكثرية الساحقة فيها ، وعصب حروبها ، ولعل ذلك يرجع إلى حداثة عهدهم بالإسلام ، وإلى تخوفهم من استيلاء العرب الفادمين على الفوز والسلطان ، فيصبحوا محكومين للغير كما كانوا فى العهود التى قبل الإسلام ، فأرادوا أن يعتصموا بهذه المذاهب ، لتكون الدولة بأيديهم ، وقد زال هذا الشعور بتقادم العهد ، وخصوصا لما لمسوا بأيديهم أن الإسلام إنما يراعى الأصلح ، ويقدم الأتقى ، ولا يعترف إلا بالقيم الأخلاقية دون نظر إلى العرق أو اللون أو المنزلة الاجتماعية ، فقد أسس البربر كما أسس غيرهم من الأجناس التى دخلت فى الإسلام ، دولا كانوا هم عمادها فى عصور مختلفة دون أن يتحرج الآخرون ، ولذلك نجد الآن برابرة المغرب الأقصى وأكثرية برابرة الجزائر وتونس وطرابلس على المذهب المالكى ، ولا تكاد تشعر بين البربر والعرب بفروق ، إذ العقيدة الإسلامية طغت على كل شىء رغم تمسك البربر بلغتهم وأحرفها التى لا تزال عند البعض منهم ، واحتفاظهم بشىء من التقاليد التى كانت لهم من قبل .

بقى المذهب الشيعى الفاطمى سائداً فى تونس ، وحكومة الشيعة قائمة فيها إلى أوائل القرن الخامس ٣٩٩ هـ ، حيث طغت على الدولة الدتن ، وعصفت بأتباع المذهب الحروب ، فانكمش ثم اختفى ، الا أنه ترك مظاهره وآثاره باقية إلى

اليوم فى كل بلد من بلاد المغرب، فى مراكش لا يزال لآل البيت (الأشراف) عند السكان تقديسهم واحترامهم إلى أبعد حد ، يزورونهم أفراداً وجماعات فى مواسم مختلفة ، يلتمسون رضاهم وصالح دعواتهم ، وحسن توجيهاتهم ، يقبلون أيديهم تبركا ، ويقدمون لهم الهدايا القيمة والأموال الوفيرة ، ويبذل رجال القبائل وعلى الأخص البربرية منها كالنوارق وتوات لتزويج بناتهم من أبناء الأشراف كى يحصل لهم الارتباط بالنسب الشريف ، وفى قبائل النوارق (الملثمين) إلى الآن تشاهد الأشراف منهم يضعون النقاب الأسود على وجوههم ، أما غيرهم فالنقاب الأزرق وللعبيد النقاب الأبيض .

أما فى تونس فإن شهر المحرم شهر حزن لا تقام فيه الأفراح ، ولا يأخذ النساء زينتهن ، ويوم عاشوراء عندهم يوم حزن شديد ، ولآل البيت فى تونس مكانتهم كذلك ، وإمامة الجامع الأعظم تكاد تنحصر فيهم رغم وجود من هو أعظم منهم ، ولعل من بقية عهد الفاطميين الطرق الصوفية التى نشاهد فى أسانيدها كلها على اختلاف شيوخها المنسوبة اليهم ، أنها تجمع كلها فى الإمام جعفر الصادق والإمام محمد الباقر ، وترتفع إلى الإمام على كرم الله وجهه ، ثم الى مقام التصلية والتسليم ، كما تجتمع شجرات الشرف فى إدريس الأكبر ابن عبد الله الكامل ـ السبط ـ .

المذهب الحنفى :

أما مذهب أبى حنيفة النعمان فقد دخل الى تونس وطرابلس والجزائر عند دخول الأتراك اليها فى أواخر القرن العاشر ، ولا يزال مذهب من تناسل منهم الى الآن ، وهو مذهب العائلة المالكة فى تونس .

أما فى مراكش فلا يكاد يوجد أتباع لهذا المذهب ، وتوجد فى الجزائر وفى تونس محاكم شرعية لكل من المذهبين : المالكى والحنفى ، وقد نبغ بين أتباع هذا المذهب علماء أعلام ، ألفوا فيه مؤلفات قيمة ، ويدرس هذا المذهب فى تونس فى جامع الزيتونة إلى الآن . أما بقية الفرق والمذاهب الإسلامية الأخرى ، فإن تونس وشمال إفريقيا لا تعرفها إلا من المؤلفات ؟